الباب الثالث

الذكورة السامة والنظام الأبوي في رواية "كانت لتكون

أ. ملخّص رواية "كانت لتكون" لعلاء نصر

تروي رواية "كانت لتكون" لعلاء نصر مسيرة حياة امرأة تُدعى سينا، التي نشأت منذ طفولتها تحت رقابة صارمة من أسرتها، ولا سيما من جدّها. منذ أن بلغت العاشرة من عمرها، سلّمها الجدّ مجلّداً غامضاً مُغلقاً بإحكام، لا يمكن فتحه إلا بعد أن تُتمّ عشرة شروط وضعها بنفسه. لم تكن تلك الشروط مجرّد اختبارٍ للصبر والطاعة، بل كانت رمزاً للسيطرة التي قيّدت حرّية سينا في تقرير مصيرها. عاشت سينا خلال سنوات نشأتها في صراعٍ نفسي وضغطٍ داخلي كبير، إذ كان عليها أن تلتزم بجميع القواعد دون أن تتجرّأ على التساؤل عن أسبابها. كان جدّها، الذي يجمع بين الحنان والحزم، يؤكّد أنّ تلك الشروط نابعة من الحبّ والخوف عليها، لا من الرغبة في تقييدها. غير أنّ سينا، مع مرور الوقت، بدأت تُدرك أنّ ذلك الحبّ نفسه قد تحوّل إلى شكلٍ من أشكال الهيمنة والسيطرة التي سلبت منها حرّيتها الشخصية.

يبلغ الصراع ذروته عندما تواجه سينا الشرط العاشر، وهو ضرورة خطبتها لرجلٍ يُدعى حمزة لمدة ستة أشهر. كان هذا القرار من وضع جدّها بالكامل، دون أن يُستشار رأيها فيه مطلقاً. وعلى الرغم من كرهها الشديد لفكرة الإكراه، اضطرت سينا إلى كتم مشاعرها والانصياع في صمت، إذ كانت لا تزال تشعر بالتزامٍ عاطفيٍّ عميق تجاه جدّها، مزيجٍ من الاحترام والحبّ الذي كبّل حريتها. أمّا حمزة، فقد صُوِّر في الرواية كرجلٍ متسلّطٍ يميل إلى السيطرة، إذ كان غالباً ما يتحدّث مع والد سينا حول شؤونهما الخاصة دون أن يطلب رأيها أو يستشيرها، مما يعزّز صورة سينا كامرأةٍ تُقيَّد إرادتها وتُدار حياتها من قِبَل الرجال المحيطين بها.

إلى جانب الضغوط العائلية، واجهت سينا أيضاً ضغوطاً اجتماعية من محيطها. فقد كان المجتمع من حولها يُقيِّم النساء بناءً على طريقة لباسهنّ ورقّتهنّ في التعامل، بينما كانت سينا، رغم التزامها باللباس المحتشم وطابعها الديني، صاحبة مبدأ قويّ وشخصيةٍ حازمة لا تنصاع بسهولة. ولهذا السبب، كان الكثيرون ينظرون إليها باستغرابٍ بل ويسخرون منها أحياناً بسبب اختلافها عن الصورة النمطية للمرأة. ومع ذلك، اختارت سينا الصمت وحافظت على كرامتها، في شكلٍ من أشكال المقاومة الهادئة ضدّ الأحكام الاجتماعية الظالمة التي تُقيِّد حرية المرأة وتحدّد قيمتها من خلال المظهر والسلوك فقط.

ب. الذاكرة الصادمة في شكل الضغوط العائلية

في رواية كانت لتكون، لا تنفصل حياة شخصية سِينا عن الضغوط العائلية القوية، ولا سيّما تلك الصادرة عن الشخصيات الذكورية داخل البنية الأسرية. تُصوَّر الأسرة بوصفها فضاءً مليئًا بالقواعد والنصائح والمتطلبات التي يجب الالتزام بها، وليس مجرد مكان للحماية والعاطفة. وتظهر هذه الضغوط بصورة تدريجية وتمتد على مدى زمني طويل، مما يسهم في تشكيل نمط حياة سِينا وطريقة تفكيرها منذ سن مبكرة. وعلى الرغم من أن هذه الضغوط لا تتجلى دائمًا في صورة إكراهٍ مباشر أو قاسٍ، بل غالبًا ما تُغلَّف بدوافع الحب والحرص والرغبة في الحماية، فإنها في جوهرها تنطوي على قيودٍ تضع شخصية سِينا في موقعٍ سلبيٍّ قائمٍ على الطاعة. وقد اعتادت سِينا على تقبّل قرارات الأسرة دون إتاحة مجال كافٍ للتساؤل أو الرفض، مما يجعل العلاقة بين الأسرة وسِينا علاقةً هرمية أكثر منها علاقةً حوارية. ويُظهر هذا الواقع أن الأسرة تؤدي دورًا محوريًا في توجيه مسار حياة سِينا، سواء من خلال القيود أو الالتزامات المفروضة عليها، كما أن هذه الضغوط المستمرة تصبح مصدرًا للصراع النفسي الذي ينعكس على مواقفها وخياراتها وعلاقاتها بالمحيط الاجتماعي. ومن ثمّ، يمكن النظر إلى الضغوط العائلية

في رواية كانت لتكون من خلال شكلين رئيسين، هما منع سِينا من تحديد خياراتها الحياتية، وإلزامها بالامتثال للشروط التي تفرضها الأسرة، كما سيُبيَّن في المباحث الآتية.

١. منعُ تحديدِ اختيارِ الحياة

١,١. في رواية "كانت لتكون"، تواجه الشخصية سينا أشكالاً متعددة من المنع ولا تُمنح الحرية في اتخاذ قراراتها الخاصة. فقد فرضت أسرة سينا عليها عدة قيود ومنعوا عنها خياراتها الشخصية. هناك عشرة شروط وضعت على سينا لتحديد اختياراتها، ومن بين هذه الشروط، يرتبط الشرط العاشر مباشرة بحرية اتخاذ القرار. ينصّ الشرط العاشر على أنّ سينا مُلزمة بالزواج من شخصٍ محدّد دون أن يكون لها أي رأي أو إمكانية للاعتراض. وقد ورد هذا في البيانات التالية:

" الشرط العاشر : ستجدين هذا الشرط مع نفس الشخص الذى سيعطيك مفتاح المجلد وبدون الشرط الأخير لن يعطيك المفتاح ! .." [٥١]

استناداً إلى هذه البيانات، يؤكّد هذا الشرط أنّ ضبط النفس يعد أمراً مهماً في علاقاتهم. ومن خلال البيانات، تبيّن للكاتبة أنّ التحكّم بالغضب في رواية "كانت لتكون" يُعد أحد الشروط التي فرضها الجدّ على سينا. وفي هذا السياق، لم يكن بإمكان سينا أن تحدّد خياراتها بحرّية.

١,٢. بدأ منع الشخصية سينا من تحديد خيارات حياتها عندما كانت تبلغ من العمر عشر سنوات، وذلك عندما تسلّمت مجلداً غريباً وكبيراً من جدّها. كان هذا الكتاب ثقيلاً جداً بحيث صعب رفعه عليها، ومزوّداً بقفل لا يُفتح إلا بالمفتاح. وقد شكّل هذا الإهداء بدايةً لسلسلة من القيود والشروط التي كان على سينا الالتزام بها قبل أن يُسمح لها بفتحه. وقد ورد ذلك في البيانات التالية:

---

[٥١] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٠.

"عندما بلغت من العمر عشر سنين ،أهداها جدها مجلداً كبيراً كان من الصعب عليها أن تحمله بيديها الصغيرتين ، كان شكل المجلد عجيب اً حتى أنه أُغلق بقفل لا يُفتح إلا بمفتاح ، أخبرها جدها.." [٥٢]

استناداً إلى هذه البيانات، يُظهر ذلك أنّ الجدّ قد حدّد الشروط مسبقاً على شخصية سينا. وتشير البيانات أيضاً إلى أنّ المجلّد الكبير الذي قدّمه الجدّ كان بدايةً للقيود والضوابط التي كان على سينا الالتزام بها.

١,٣. تُعدّ القيود التي فرضتها أسرة سينا تعبيراً عن القلق والمحبة التي منحها الجدّ. فقد أوضح جدّ سينا أنّ جميع القيود والشروط التي فرضها نابعة من محبته واهتمامه بها. ويتضح ذلك من أقواله الواردة في البيانات أدناه:

" واعلمى جيدا أننى أحبك كثيرا وما فعلت شيئا إلا لعلمى بك وخوفى عليك.." [٥٣]

تشير البيانات إلى أنّ القيود التي فرضها الجدّ تُعد دليلاً على قلقه ومحبته لشخصية سينا.

١,٤. لم يكن امتثال سينا للشروط التي فرضها جدّها ناتجاً عن طموح أو فضول، بل كان نابعاً من الحب والمودة. وقد ورد ذلك في البيانات التالية:

" بسبب عمرها الصغير حينها لم تدرك تمام ما يرمى إليه جدها ، ولكنها فعلت كما طلب ،ليس فقط لأنها تريد فتح المجلد إلا أنها كانت تحب جدها كثيرا.." [٥٤]

---

[٥٢] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة٩ .

[٥٣] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٢ .

[٥٤] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٣.

تشير البيانات إلى أنّ امتثال سينا كان مدفوعاً بالمودة وليس برغبة شخصية فقط. وتوضح البيانات أنّ شخصية سينا التزمت بجميع الشروط التي أوكلها جدّها قبل أن تفتح المجلّد الذي قدّمه لها.

١,٥. إلى جانب الجدّ، هناك عدة شخصيات أخرى تفرض ضغوطاً على سينا بشأن خيارات حياتها، وهم الأب وخطيبها المستقبلي حمزة. لم يشرك حمزة سينا في اتخاذ القرارات. ففي رواية "كانت لتكون"، بادَر حمزة بالتحدث مباشرة مع والد سينا حول مسألة معينة دون أن يطلب رأي سينا مسبقاً. ويتضح ذلك من الاقتباس الوارد في البيانات التالية:

" ابتسم وقال لى " إذا سأتفق مع والدك على التفاصيل" .. وعاد إلى صمته مرة أخرى .." [٥٥]

تُظهر هذه الأفعال أنّ حمزة يميل إلى الهيمنة في اتخاذ القرارات، بينما لم تُمنح سينا الفرصة للتعبير عن رأيها. ويشير ذلك إلى أنّ شخصية حمزة لم يستفسر عن رأي سينا مسبقاً، بل ناقش الأمر مباشرةً مع والدها.

استناداً إلى الدراسة أعلاه، يمكن الاستنتاج أنّ هناك ثلاث شخصيات ذكورية في رواية "كانت لتكون"، وهم الجدّ، الأب، وخطيب سينا، الذين يتحكمون في حياتها من خلال فرض ثلاثة عشر شرطاً يجب على سينا الالتزام بها. وقد فُرضت هذه الشروط على سينا منذ أن كانت تبلغ من العمر عشر سنوات. وخلال هذه السنوات العشر، تحلّت سينا بالصبر في مواجهتها. وفي هذا السياق، يُلاحظ وجود علاقة ذكورة سامة *(toxic masculinity)* تربط سينا بجميع الشخصيات الذكورية في الرواية.

٢. وجوب الالتزام بشروط الأسرة

---

[٥٥] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ٢١.

٢,١. لم تتوقع شخصية سينا أنّ منعها من تحديد حياتها بدأ عندما كانت تبلغ من العمر عشر سنوات، حيث بدأت رحلتها من عشرة شروط بسيطة لكنها ثقيلة: كان عليها الانتظار حتى تبلغ العشرين قبل أن تفتح مجلداً غامضاً تركه جدّها. عند قراءة الشرط الأول، لم تستطع سوى أن تعانق وسادتها وتدعو بصمت كما علّمها جدّها، وفي نومها حلمت بارتداء حجابها المفضل والوقوف على طريق متفرع كرمز للاختيارات الحياتية التي لم تكن قادرة على تحديدها بنفسها. ومع بزوغ الفجر أيقظها قبلة دافئة من جدّها، وبدأت السير بدافع الفضول والإيمان والمحبة. لم تتوقف عند هذا الحد، فقد حفِظت القرآن بالتجويد الصحيح، حافظت على الصلاة والذكر، سجّدت ركعتين للتوبة كل ليلة، وامتنعت عن الزواج قبل إتمام المجلد، وأصبح كل شرط عاشته سواء بسيط أو ثقيل جزءاً من نموها وكفاحها. أما الشرط الأخير، الأكثر غموضاً، فلم يُكتب على أي ورقة، وكان يظهر فقط عند الشخص الذي يحمل المفتاح وعندما يحين الوقت. وهكذا، عاشت سينا ملتزمة بالعشرة شروط الغنية بالمعنى التي ورّثها جدّها، كجزء من رحلة روحانية ونضج وحب عميق، متعلمة أنّ الطاعة ليست مجرد واجب بل دليل على حب حيّ صامت.

" الشرط الأول : عليك أولا أن تبلغى من العمر عشرون عاما ...

عندما قرأت ذلك الشرط .. فعلت تماما كما قال جدها .. ثم وضعت المجلد والو رقة جانبا .. وضمّت وسادتها إلى صدرها وشدت الغطاء عليها .. وذهبت ف سبات عميق بعد أن ظلت تستغفر الله كما عوّدها جدها ... رأت ف الحلم أنها ترتدى ذلك الحجاب الذى تعشقه وتقف على طريق به مفارق ولا تدرى إلى أين تذهب!؟أفاقت على قبلة جدها وهو يوقظها إلى صلاة الفجر ، فردّت إليه قبلته وقامت لتتوضأ وتصلى ، ثم ق رأت وردها من القرآن وأذكار الصباح .. وراحت فى سبات عميق مرة أخرى ..استيقظت لتتناول الفطور

مع جدها .. ذلك الفطار الذى أعدته والدتها .. قبلت يد والدها ووالدتها وتناولت الفطار معهما .. ثم قررت أن تكمل الشروط .. جاوزت الشرط الأول ثم أكملت..." [٥٦]

تُثبت هذه البيانات أنّ شخصية سينا عاشت حياتها ملتزمة بالعشرة شروط الغنية بالمعنى التي ورّثها جدّها، كجزء من رحلة روحانية ونضج وحب عميق.

٢,٢. كان جد سينا أول من أعاق سينا عن تحديد اختيارات حياتها. لم يقدّم جد سينا مجرد مجلد غامض فحسب، بل قدّم لها أيضًا دروس حياة عميقة. كان يعلم تمامًا أنّ حفيدته فضولية للغاية، وهي صفة طبيعية لدى الأطفال الذين يريدون معرفة كل شيء بسرعة. ومع ذلك، خلف دفء حبه، كان جدها يخفي الحزم. قرر ألا يسلمها مفتاح المجلد مباشرة، فكتب: أعلم أنّك فضولية جدًا، لكن عليك أولاً استيفاء الشروط. من خلال حجب المفتاح حتى يتم تحقيق الشرط الأول، لم يكن جد سينا يختبر الصبر فقط، بل كان يُرشدها نحو النضج الذي ينمو تدريجيًا مع الوقت، وليس عبر الطريق المختصر. يمكن ملاحظة ذلك في الاقتباس التالي:

" حبيبتى الصغيره تذكرى لا يجب أن تفتحى المجلد إلا بعد تحقيق هذه الشروط كاملة د ون أن ينقص منها شرطاً واحداً .. أعلم أنك فضولية إلى حد كبير ولكن عليك تحقيق الشروط أولا ... ولعلمى بكمية فضولك .. قررت أن لا أعطيك مفتاح المجلد إلا بعد تحقيق الشرط الأول[٥٧] *.."*

استنادًا إلى هذا الاقتباس، على الرغم من فضولها تجاه الوصية، ظلت سينا صبورة في اتباع الشروط العشرة التي وضعها جدها. وبناءً على ذلك، يُمكننا أن نرى في البيانات أنّ جد سينا تعمّد حجب مفتاح المجلد لأنه كان يعلم أنّ

---

[٥٦] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١١.

[٥٧] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٣.

حفيدته فضولية جدًا، لكنه أراد أن يُعلّمها معنى الصبر والنضج من خلال استيفاء الشروط.

٢,٣. منذ طفولتها، وُضعت أمام سينا شروط من قبل جدها كان عليها استيفاؤها، رغم أنّها لم تكن تفهم بعد معنى هذه الشروط. ومع ذلك، كان الجد، المليء بالمحبة والحكمة، يدرك ذلك. لم يُجبرها على فهم فوري، بل اختار أسلوبًا لطيفًا وتربويًا، فكتب الشروط على ورقة وقدمها معها المجلد الكبير المقفل. كان يعلم أنّ الزمن والخبرة هما اللذان سيعلّمان سينا معنى كل شرط. وبهذه الطريقة، لم يمنحها الجد مجرد قواعد، بل ورّث لها عملية تشكيل روح مليئة بالمعنى. يمكن ملاحظة ذلك في الاقتباس التالي:

" كان جدها يعلم أنها لم تبلغ من العمر الكثير حتى تدرك تماماً ما تعنية الشروط ، لذا أعطى لها مع المجلد ورقة وأخبرها أنه قد كتب بها الشروط .. وأخبرها أن عليها أن تعي جيداً ما تعنية الشروط قبل أن تقرأ حرف اً واحداً من المجلد.." [٥٨]

تشير البيانات إلى أنّ جد سينا أدرك أنّ حفيدته لا تزال صغيرة جدًا لفهم معنى الشروط المعطاة لها، لذا قام بكتابتها بشكل مكتوب لكي تتمكّن من فهمها وتنفيذها مع مرور الوقت.

٢,٤. عندما كانت سينا تبلغ من العمر عشر سنوات، بدأت في الوفاء بالشروط التي فرضتها عليها عائلتها، وخاصة جدها. هناك استلمت المجلد المشروط الذي غيّر مسار حياتها، وفي الغرفة التي أُعدّت خصيصًا لها، بدأت تسلك طريقًا طويلًا لتحقيق تلك الشروط. بعد سنوات عديدة، وبعد رحيل جدها، كانت سينا لا تزال تعود إلى ذلك المنزل، جالسة أمام النافذة المطلة على البحر،

---

[٥٨] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٠.

مكان جدها المفضّل. لم يكن المنزل مجرد بناء، بل كان فضاءً داخليًا مليئًا بالذكريات، مكانًا للتفكر، والدعاء، وفهم معنى الشروط الموروثة تدريجيًا:

" عندما بلغت من العمر عشر سنين ،أهداها جدها مجلداً كبيراً كان من الصعب عليها أن تحمله بيديها الصغيرتين، كان شكل المجلد عجيب اً حتى أنه أُغلق بقفل لا يُفتح إلا بمفتاح ، أخبرها جدها.. أن مفتاحه ف سلسله ستُهدى إليها بعد ذلك وأشترط عليها حتى تفتحه شروط ، من دونها لا تستطيع أن تفتح الكتاب .. أو تقرأ أى جزء منه !!" [٥٩]

استنادًا إلى البيانات أعلاه، نلاحظ أنه في سن العاشرة، تم منح الشخصية سينا مجلدًا كبيرًا من قبل جدها، وهو مجلد غير عادي ومزود بقفل لا يمكن فتحه إلا بالمفتاح الذي سيُعطى لاحقًا. وقد رافق تسليم هذا الكتاب شروط خاصة يجب على الشخصية الوفاء بها قبل أن تتمكن من الوصول إلى محتوى الكتاب. تُظهر هذه النتائج وجود تقييد للوصول إلى المعرفة، حيث لا يكون الحصول على المعلومات تلقائيًا، بل يجب المرور بعملية إعداد، واجتهاد، واستيفاء معايير محددة. ورمزيًا، يُمثل المجلد والقفل والمفتاح المسؤولية، والانضباط، وتطور الشخصية، والاستعداد الذهني للشخصية لمواجهة التحديات من أجل اكتساب العلم منذ الصغر.

٢,٥. عندما بلغت الشخصية سينا سن الثانية عشرة، بدأت في إتمام أحد الشروط التي وضعها جدها، وهو حفظ القرآن الكريم بالتجويد الصحيح. لم يكن الحفظ مجرد مهمة، بل أمانة قامت بها بجدية تامة. تحت إشراف جدها المباشر، الشخص الذي يتمتع بالحب والحزم معًا، كانت سينا تكرر الآيات آية آية، يومًا بعد يوم، حتى أتمّت الحفظ بالكامل. لم يقربها هذا الإنجاز خطوة واحدة

---

[٥٩] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٠.

فقط نحو المجلد الغامض الذي ترغب في فتحه، بل عزز أيضًا الرابط الروحي بينها وبين القرآن الكريم وجدها، الذي أصبح رفيقها المخلص في كل خطوة من خطواتها:

" بسبب عمرها الصغير حينها لم تدرك تمام ما يرمى إليه جدها ، ولكنها فعلت كما طلب ،ليس فقط لأنها تريد فتح المجلد إلا أنها كانت تحب جدها كثيرا..." [٦٠]

تكشف هذه البيانات أنه عندما بلغت سينا الثانية عشرة من عمرها، تمكنت من إتمام حفظ القرآن الكريم بالتجويد الصحيح، وذلك كجزء من شرط مهم تحت إشراف جدها المباشر.

٢,٦. تكشف هذه البيانات أنه عندما بلغت سينا تسعة عشر عامًا، شعرت برغبتها الشديدة في فتح الجِلّيد الذي منحها جدها، لكنها أدركت أن الشروط المفروضة عليها ما زالت تحد من حريتها. حاولت معرفة من يملك المفتاح على أمل فتحه أسرع، لكن جميع محاولاتها باءت بالفشل. لم يعرف أحد، أو ربما تعمدوا عدم الإفصاح. في تلك اللحظة، بدأت سينا تدرك أن هذه الشروط لم تكن مجرد مهام، بل كانت كجدار يحول دون خطواتها. ومع ذلك، استمرت في الصبر لأنها كانت تعلم أن كل ذلك أمانة من شخص تحبه كثيرًا:

" عندما بلغت من العمر تسعة عشر عاماً ،كنت متشوقة جداً لقراءة المجلد ، فقط عاماً واحدا لأفتحه .. عاماً واحداً لأقرأ ذكرى من أهم الذكريات لدى من جدى ..." [٦١]

---

[٦٠] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٣.

[٦١] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٤.

توضح هذه البيانات أنه عندما بلغت سينا تسعة عشر عامًا، شعرت بوضوح أن الشروط التي وضعها جدها بدأت تحد من حريتها ورغباتها، خاصة عندما حاولت البحث عن المفتاح لكنها لم تجد مخرجًا.

استنادًا إلى النتائج أعلاه، يمكن الاستنتاج أن شخصية سينا عاشت حياتها ملتزمةً بالعشر شروط التي وضعها جدها منذ أن كانت في العاشرة من عمرها. لم تكن هذه الشروط مجرد قواعد، بل كانت طريقًا لتشكيل شخصيتها، وتحمل المسؤولية، ونضجها. وكان جدها أكثر الأشخاص حزمًا في توجيه سينا، إذ أراد أن يرشدها بالمحبة وقيم الحياة القوية. وقد التزمت سينا بكل ذلك بإخلاص، من حفظ القرآن الكريم، والمحافظة على العبادة، وحتى طاعة الوالدين، بدافع حبها الكبير لجدها. أصبح منزل الجد مكانًا مهمًا بدأت فيه هذه العملية وما زالت تتذكره دائمًا. ورغم شعورها أحيانًا بالعبء، بقيت صبورة ومطيعة، إذ أدركت أن كل هذه الشروط هي شكل من أشكال الحب وإرث ثمين في حياتها.

ج. الذاكرة الصَدْمِيَّة في صورة الضَّغْط الاجتماعيّ

في رواية كانت لتكون، لا تقتصر الضغوط التي تتعرض لها شخصية سِينا على البيئة الأسرية فحسب، بل تمتد أيضًا إلى المجتمع المحيط بها. يُصوَّر الوسط الاجتماعي بوصفه فضاءً مشبعًا بالأعراف والعادات والتوقعات التي تُفرض على المرأة، والتي تسهم بشكل غير مباشر في تشكيل سلوك سِينا وطريقة تعاملها مع محيطها. وغالبًا ما تصبح تصرفات سِينا واختياراتها ومواقفها موضع تقييمٍ اجتماعيٍّ مستمر، الأمر الذي يحرمها من حرية التصرف دون مراعاة نظرة الآخرين. وتظهر هذه الضغوط الاجتماعية من خلال المواقف والتعليقات ونظرات المجتمع التي تطالب المرأة بالامتثال لمعايير سلوكية تُعد مقبولة اجتماعيًا. ويضع هذا الواقع سِينا في حالة من التقييد الدائم، إذ تضطر إلى الموازنة بين تمسكها بمبادئها الشخصية ومحاولتها التكيف

مع متطلبات المجتمع. ومن ثمّ، تؤدي الضغوط الاجتماعية في رواية كانت لتكون دورًا مهمًا في تشكيل الصراع الذي تعيشه شخصية سِينا، ولا سيما ما يتعلق بالمطالبة بالزواج وفق الأعراف الاجتماعية وتقييم المجتمع لسلوك المرأة، كما سيُتناول في المباحث الآتية.

١،١. الضَّغْطُ على الزَّوَاجِ وَفْقًا لِلعَادَاتِ الاجتِمَاعِيَّةِ

بدأت الضغوط الاجتماعية المتعلقة بالزواج تُثقل كاهل سينا عندما وجدت نفسها أمام حقيقةٍ لم تكن تتوقّعها، وهي أنّ عائلتها قرّرت خِطبتها لشاب يُدعى حمزة، لم تكن تعرفه من قبل، ولم تربطها به أي معرفة أو علاقة سابقة. كانت سينا ما تزال في مرحلةٍ تبحث فيها عن ذاتها، ولم تكن مستعدّة نفسيًا ولا فكريًا لخوض تجربة الزواج. كانت فكرة الارتباط بشخصٍ غريب عنها تُثير في داخلها القلق والخوف، خاصّةً أنّها لم تكن تعلم شيئًا عن طباعه أو شخصيّته. ومع ذلك، وجدت نفسها مجبرة على القبول تحت وطأة الأعراف الاجتماعية وتوقّعات الأسرة، الأمر الذي جعلها تشعر بضغطٍ نفسيٍّ كبيرٍ لا تستطيع الإفلات منه. كما ورد في الاقتباس الآتي:

عندما قرأت تلك الكلمات صدمت لأننى أعلم تماماً مفهوم عائلتى عن الخطبة .. فالخطبة عندهم لا تستمر أكثر من شهرين ثم يجب أن يعقد القران ،ثم حضر ف بالى هذا الشاب كيف لى أصلا أن أطيقه أو أن أتصرف معه ؟! أنا حتى لا أعرف شكله فكيف بالطباع ؟! كما أننى لست ممهدة الآن لأمور الزواج تلك !! [٦٢]

تُعبِّر هذه العبارة عن حالة الصدمة التي شعرت بها سينا تجاه الشرط الأخير الذي فرضه عليها جدّها، مما يدلّ على أنّها أُجبرت على قبول خطوبةٍ تتعارض مع رغباتها وإرادتها الشخصية.

---

[٦٢] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٩.

١,٢. تُظهر بعض الشروط التي وضعها الجدّ شكلاً من أشكال السيطرة اللطيفة على حياة الشخصية الأنثوية. فقد أصبحت هذه الشروط رمزًا لتداخل الحبّ والسلطة في إطار العلاقات الأسرية، حيث يُتَّخذ الحنان ذريعةً لتقييد حرية الفرد في اتخاذ قراراته الخاصة. ويُبرز الجدّ سلطته بطريقةٍ ودّية ومليئةٍ بالعطف، إلا أنّه في الوقت نفسه يُلغِي المجال أمام الشخصية الأنثوية لرفض تلك الشروط أو الاعتراض عليها:

" أعلمى يا عزيزتى أن شرطى الأخير هو أن تخطبى ل " حمزة " .. لمدة لا تقل عن ستة أشهر .. أعلم أنك الآن ف شدة غضبك وتذمرك .. فدائماً ما كنتى تكرهين أن يجبرك أحدهم على شئ ولكن لا حقاً ستعلمين أننى أحبك .. " [٦٣]

من خلال هذه المعطيات يمكننا أن نستنتج أنّ الجدّ استخدم مشاعر المودّة وسيلةً لتبرير سلطته. فقد فرض إرادته في ثوبٍ من الكلمات الرقيقة المفعمة بالحبّ، مما جعل هيمنته تبدو وكأنها نوعٌ من العناية والاهتمام. ويُظهر ذلك وجود سيطرةٍ عاطفيةٍ تُقيّد الشخصية الأنثوية، حيث يُتَّخذ الحبّ ذريعةً للمطالبة بالطاعة، ويؤكِّد في الوقت ذاته أنّ السلطة داخل العلاقات الأسرية يمكن أن تعمل من خلال التلاعب بالعواطف في إطارٍ من المحبّة الظاهرية.

١,٣. في الشرط الأخير الذي وضعه الجدّ، طُلِب من سِنا أن تُخطب لحمزة مدّةَ ستة أشهر، رغم أنّها لا تعرفه من قبل. وكان الجدّ يعلم جيّدًا أنّ سِنا لا تحبّ أن تُجبَر على شيء، ومع ذلك أصرّ على هذا الشرط. وقد وضعها ذلك في موقفٍ بالغ الصعوبة؛ فهي من جهةٍ تريد أن تظلّ وفيّةً لوصية جدّها، ومن جهةٍ أخرى تشعر بأنّ رغبتها الشخصيّة لا تُحترم. وقد ورد ذلك في الاقتباس الآتي:

---

[٦٣] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٩.

" أعلمى يا عزيزتى أن شرطى الأخير هو أن تخطبى ل " حمزة " .. لمدة لا تقل عن ستة أشهر .. أعلم أنك الآن ف شدة غضبك وتذمرك .. فدائماً ما كنتى تكرهين أن يجبرك أحدهم على شئ ولكن لا حقاً ستعلمين أننى أحبك .. [٦٤]

يُعَدُّ هذا الاقتباسُ الشرطَ الأخيرَ الذي يجب على سِنا أن تُتمَّه لكي تتمكّن من فتح المجلَّد الذي أعطاها إيّاه جدُّها. وتُظهِرُ هذهِ المعطياتُ أنّ سِنا أُجبِرَت على قبولِ شرطِ الخِطبةِ الذي يُخالِفُ رغبتَها وإرادتَها الشخصيّة.

١,٤. ازدادت هذه المشكلةُ تعقيدًا لأنَّ شرطَ الخِطبةِ هذا يُخالِفُ عاداتِ أُسرةِ سِنا نفسِها. ففي تقاليدِ أُسرتها، لا يجوز أن تطولَ مدّةُ الخِطبة، بل يجبُ أن تُتبعَ مباشرةً بعقدِ القِران. ولذلك، عندما قرأت سِنا ذلك الشرط، شعرت أنَّها عالقةٌ بين تكريمِ وصيّةِ جدّها وبين احترامِ الأعرافِ الاجتماعيّةِ لعائلتِها. ويتجلّى ذلك بوضوحٍ في الاقتباسِ الآتي:

" عندما قرأت تلك الكلمات صدمت لأننى أعلم تماماً مفهوم عائلتى عن الخطبة .. فالخطبة عندهم لا تستمر أكثر من شهرين ثم يجب أن يعقد القران ،ثم حضر ف بالى هذا الشاب كيف لى أصلا أن أطيقه أو أن أتصرف معه ؟! أنا حتى لا أعرف شكله فكيف بالطباع ؟! كما أننى لست ممهدة الآن لأمور الزواج تلك !!" [٦٥]

يحتوي هذا الاقتباسُ على إشارةٍ إلى أنَّ الأعرافَ العائليةَ لا تتوافقُ مع ما أمرَ به الجدُّ بشأن الخِطبة. وتُفصحُ هذه البياناتُ أنَّ الخِطبةَ التي طلبها الجدُّ تُخالِفُ القواعدَ والتقاليدَ الاجتماعيّةَ لأُسرةِ سِنا.

---

[٦٤] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٩.

[٦٥] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٩.

١,٥. في مثل هذه الظروف، أدركت سِنا أنَّ جدَّها هو الشَّخصُ الذي يمتلكُ السُّلطةَ الكاملةَ على نظامِ الأسرة. فهو لم يكنْ مُجرَّدَ تابعٍ لذلك النِّظام، بل كان المقرِّرَ والمشرِّعَ له، ولذلك فإنَّ أيَّ قرارٍ يصدرُ عنه يُطاعُ من قِبَلِ جميعِ أفرادِ الأسرة. وقد جعلَ هذا الإدراكُ سِنا تُدرِكُ أنَّ قراراتِ جدِّها ليستْ بالأمرِ الذي يُمكنُ رفضُه بسهولة. ويُؤَكِّدُ هذا المعنى في الاقتباسِ الآتي:

" ولكن هناك شيئا ما لا أفهمه ..كيف يريد جدى أن نخطب وشرطه أن لا نتز وج قبل أن أنهى المجلد ؟! مع العلم أنه يعلم تماماً نظام العائله وبالأحرى هو من وضعه !! جلست فى مكانى وقتها لا أستطيع الح راك ،قمت فصليت ركعتين توبة ، ومن ثم ركعتين استخاره لأرى ماذا يمكننى فعله ف هذه المشكله ؟! .. ثم ذهبت ف سبات عميق .." [٦٦]

تُعبِّرُ هذهِ العِبارةُ عن حالةِ الاستِسلامِ التي عاشَتها سِنا تُجاهَ الشُّروطِ التي فَرَضَها عليها جَدُّها. وبناءً على هذهِ البيانات، يتبيَّنُ أنَّ الجَدَّ لم يُتِحْ لِسِنا أيَّ مساحةٍ — ولو قليلةٍ — لاتِّخاذِ قراراتِها أو اختِيارِ طَريقِ حياتِها بِنَفسِها.

١,٦. على الرغم من صعوبةِ الموقفِ، اختارت سِنا في النهايةِ الصمتَ وكظمَ نفسِها. فلم تُظهِرْ رفضًا صريحًا، ولم تُعَارِضْ جَدَّها بالكلام، بل أبدتْ خضوعًا تامًّا نابعًا من الضَّغطِ والمحبَّةِ والطاعةِ تجاهَ الشَّخصِ الذي كانت تُكِنُّ لهُ احترامًا عميقًا. وقد تجسَّدَتْ ردَّةُ فعلِ سِنا بوضوحٍ في الاقتباسِ الآتي:

" عندما استيقظت لصلاة الفجر كنت أشعر بالراحة،صليت وقرأت أذكارى ووردى غفوت قليلاً ثم استيقظت على صوت والدتى حينما قبلتنى وأخبرتنى أن هذا ال " حمزه " هنا !!كانت أمى تبتسم تلك الابتسامة التى ابتسمها أبى" [٦٧]

---

[٦٦] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٩.

[٦٧] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ٢٠.

تُعبِّرُ هذهِ الجملةُ عن أنَّ سِنا، على الرغمِ من أنَّ قلبَها لم يتقبَّلِ الأمرَ تمامًا، إلَّا أنَّها التزمتْ بتنفيذِ ذلكَ الشَّرطِ بوعيٍ كاملٍ لمعنى المسؤوليةِ والأمانةِ العائليةِ.

بناءً على كُلِّ ما سَبَقَ من عَرضٍ وتحليلٍ، يُمكِنُ أنْ نَستخلِصَ أنَّ الشَّخصيَّةَ "سِنا" واجهتْ ضغوطًا شديدةً تتعلَّقُ بالزواج، حيثُ اضطُرَّت إلى قبولِ شرطِ جَدِّها بالارتباطِ بخِطبةٍ مع "حَمزة"، وهو شخصٌ لا تَعرِفُه من قبل. وقد جاءَ هذا الضَّغطُ من النِّظامِ الأسريِّ القويِّ الذي كانَ الجَدُّ فيهِ هو السُّلطةُ الأعلَى والمتحكِّمُ في جميعِ القرارات، بما في ذلكَ ما يتعلَّقُ بالزواج. وعلى الرَّغمِ من تَعارُضِ ذلكَ مع رَغبتِها واستعدادِها النَّفسيِّ، إلَّا أنَّ "سِنا" آثَرَتِ الصَّمتَ والاستسلامَ، تعبيرًا عن الاحترامِ والطَّاعةِ لأُسرتِها وتقاليدِها.

٢. تقييم المجتمع لسلوك المرأة

٢,١. في هذا المقتطف يظهر أن شخصية سينا تختلف عن صديقاتها في نظرتها إلى الحب، إذ تعتبره أمراً تافهاً ولا أهمية له، على عكس صديقاتها اللواتي يرين فيه معنى الجمال والرومانسية والقيمة العاطفية. هذا الموقف النقدي من الحب يعكس تأثر سينا بتجاربها الشخصية وملاحظتها للعلاقات المحيطة بها، مما جعلها تنظر إلى الحب كعبء لا كقيمة إنسانية نبيلة:

" عندما بلغت من العمر تسعة عشر عاماً ، كنت متشوقة جداً لقراءة المجلد ، فقط عاماً واحدا لأفتحه ..عاماً واحداً لأقرأ ذكرى من أهم الذكريات لدى من جدى ..." [٦٨]

العبارة تكشف أن شخصية سينا تختلف عن باقي النساء اللواتي يعتبرن الحب لوناً يزين الحياة، غير أن ذلك لا ينطبق عليها. فقد أثرت الشروط التي فرضتها عائلتها عليها في تكوين شخصيتها، حتى أصبحت صارمة وجامدة في تعاملها

[٦٨] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٤.

مع الجنس الآخر، مما يعكس تأثير التربية المقيدة على نظرتها للعاطفة والعلاقات الإنسانية.

٢,٢. يتّسق هذا الموقف اللامبالي تجاه الحب مع طريقة تعامل سينا مع الجنس الآخر، إذ تُظهر تحفظاً شديداً وتلتزم بمسافة واضحة عند التعامل مع الرجال، وخصوصاً في بيئة الجامعة المختلطة بين الطلاب والطالبات. ويبدو شعورها بعدم الارتياح تجاه هذا التفاعل الاجتماعي واضحاً في المقتطف التالي:

" عندما بلغت من العمر خمسة عشر عاماً .. اضطررت أن أدخل إلى مدرسة مختلطه ولكن على تربيتى لم أكن أكلم أحداً من البنين إلا فيما الضرورى ، وبالحدود التى تربيت عليها ، كنت قاسية جداً معهم إلى الدرجة التى لا تجعل أحداً منهم يقترب منى .." [٦٩]

يشير ذلك إلى أن موقف سينا ليس مجرد صدفة، بل نتيجة لملاحظتها وتمسكها بالقيم التي تؤمن بها.

٢,٣. يتضح حزم سينا في حدود نفسها أكثر عندما تواجه مواقف اجتماعية تتعارض مع مبادئها. ففي لحظةٍ ما، ردّت بالفعل الجسدي وصفعت رجلاً حاول تجاوز الحدود. وكان هذا الفعل تجسيداً لمقاومةٍ قويةٍ وعفويةٍ، تعكس في الوقت نفسه مدى جديتها في الحفاظ على نزاهتها الشخصية:

" حتى أننى ذات م رة ، جاء أحدهم ليتطاول على بالكلام ويتحدث عن مشاعره اتجاهى .. تلمست فكلامه الكذب ،كما لو كان الكلام فيه رائحة كريهه ! لم أتحمل كثيراً فصفعته على خده ووقفت أمامه أتحداه أن ينطق بكلمة زائدة ، رأيت الدم يفور ف عنقه وقرر أن يرد إلى الضربة .. فلويت له ذراعه وصرت أكيل له الكلام ، أخبرته " أنه ليس معنى أننى أرفض التحدث

---

[٦٩] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٤.

مع الشباب أننى ساذجة،لا أفهم ألاعيب الشباب ، المسلم الحقيقى من ليس بخب ولا الخب يخدعه " ثم تركته وذهبت ..." [٧٠]

يؤكِّدُ ذلك كيفَ أنَّ سينا لا تتردَّدُ في إظهارِ حدودٍ صارمةٍ تجاهَ التصرّفاتِ التي لا تقبلُها.

٢,٤. ردّةُ الفعلِ العنيفةُ التي أبدتْها سينا لم تُفاجِئِ الشخصَ المعنيَّ فحسب، بل أدهشتْ أيضًا أصدقاءَها المقرَّبين. فالسلوكُ الذي كان يُعتبَرُ هادئًا ومهذَّبًا تحوَّلَ فجأةً إلى شكلٍ من أشكالِ المقاومةِ غيرِ المتوقَّعة، مما أثارَ الدهشةَ في بيئتِها الاجتماعيّة، كما يتجلّى في الاقتباسِ الآتي:

" هذا الموقف جعلهم جميعاً يتعجبون منى حتى صديقاتى البنات ، فهيئتى لا تدل على ذلك أبدا .. فأنا أرتدى العباءات والأوشحة الطويلة .. أغض بصرى ولا أستخدم أبداً تلك الحركات .. ولكن حقاً ذلك الشاب استفزنى كثيراً .. كان يعتقد أنه هو من يستطيع الإيقاع بى .. وعلى حدّ قوله أننى كنت أنتظر أحداً مثله .. وأنا أكره ذاك المعتد بنفسه [٧١]

يفصحُ هذا الاقتباسُ عن أنَّ نظرةَ المجتمعِ إلى شخصيةِ سينا لا تتوافقُ مع المعاييرِ السائدةِ في بيئتِها. ويُظهِرُ ذلك أنَّ ملبسَ الشخصِ في مجتمعِها يُعَدُّ مِقياسًا لشخصيّتِه.

٢,٥. أحدُ أسبابِ الدَّهشةِ هوَ التناقضُ بينَ مظهرِ سينا وسلوكِها. فقد صُوِّرتْ على أنَّها امرأةٌ تلبسُ بلباسٍ محتشمٍ وديني، ترتدي العباءةَ والحجابَ الطويلَ، بل النقابَ أيضًا. غيرَ أنَّهُ وراءَ هذا المظهرِ الذي يُعَدُّ لطيفًا ومهذّبًا، تختبئُ شخصيّةٌ قويّةٌ حازمةٌ لا تُقهَرُ بسهولة. وهذا ما يُولِّدُ مفارقةً في نظرةِ المجتمعِ إليها:

---

[٧٠] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٣.

[٧١] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٣.

" فأنا أرتدى العباءات والأوشحة الطويلة .. أغض بصرى ولا أستخدم أبداً تلك الحركات .. ولكن حقاً ذلك الشاب استفزنى كثيراً .. كان يعتقد أنه هو من يستطيع الإيقاع بى [٧٢]

يُفصحُ هذا القولُ أنَّ اللباسَ يُعَدُّ انعكاسًا لسلوكِ الإنسان، كما يُشيرُ إلى أنَّ المظهرَ المحتشمَ يُعبِّرُ عن خُلُقٍ وأدبٍ رفيعٍ كذلك.

٢,٦. كثيرًا ما كان المجتمعُ من حولها، بما في ذلك زملاؤها في الجامعة، يُوجِّهون إليها نظراتٍ ساخرةً أو حتى سُخريةً من مواقفِها ومبادئِها التي تتمسّك بها. ومع ذلك، لم تَرُدّ سِنا على تلك الإهاناتِ بألفاظٍ جارحةٍ، إذ كانت تُدرك أنَّ الهجومَ لم يكن موجَّهًا إلى شخصِها فحسب، بل إلى القيمِ التي تؤمنُ بها وترثُها عن أسرتِها. وفي هذا السياق، كان صمتُها دليلًا على الثباتِ والكرامة:

" فى عملى صبرت كثيرا ، وكنت أدعوا الله دوما أن يرزقنى من حيث لا أحتسب ، كنت أمر باختبارت عسيره هى فى الأصل اختبارات لقيمى وقناعاتى الشخصية ! وأدعوا الله فقط أن أن لا أقع فى أى اختبار كنت أدعو الله دوما أن أمثل الإسلام بصورة جيده ! أن لا أجعل أحدا ينفر من الإسلام بسبب فعل قد فعلته بعفوية دون التفكر به !" [٧٣]

في رواية "كانت لتكوني" تُصوَّر شخصية سِنا على أنَّها امرأةٌ شجاعةٌ تُدافع عن مبادئ حياتِها بثباتٍ، رغم ما تتعرّض له من أحكامٍ سلبيةٍ وانتقاداتٍ من قِبَل المجتمع من حولها.

استنادًا إلى المعطيات السابقة، يتّضح أنَّ شخصية سِنا تمتلك نظرةً مختلفةً تجاه الحبّ، إذ تتصرّف بجمودٍ تجاه الرجال، وتُظهر حزمًا لا يتوافق مع توقّعات المجتمع من المرأة ذات المظهر الديني. وقد جاءت ردود فعل المجتمع

---

[٧٢] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٦.

[٧٣] كانت لتكون,الاء نصر (نوفمبر ٢٠١٥) صفحة ١٦.

تجاهها على شكل أحكامٍ واستغرابٍ وسخريةٍ، إلا أنّ سِنا اختارت ألّا تردّ عليها. بل بقيت هادئةً وثابتةً على القيم التي تؤمن بها، لتُظهر أنَّ ثبات المبدأ والهدوء في مواجهة الضغوط الاجتماعية يُعدّان مظهرًا من مظاهر قوّة المرأة.